الدكتورة: خيرة بورنان السنة الثانية: قسم الفلسفة

محاضرات مقياس:

فلسفة التأويل في العصور الوسطى

المحاضرة رقم: 06

إشكالية تأويل النص المقدس (في المسيحية)

تمهيد:

المتتبع لتاريخ الهيرمينوطيقا لن يجد صعوبة البتة في ادراك أن الحاضنة الأساسية للتأويلية، إنما هي الدراسات الدينية، ولهذه النشأة في كنف اللاهوت وبين جدران الكنيسة ما يبررها ومن ذلك المشاكل التي واجهها كل أولئك الذين حاولوا أن يقدموا تفسيرات للإنجيل مختلفة عن تلك التي كانت متداولة رسميا بين الإكليروس. ومن تلك المشكلات أيضا، تثبيت الإنجيل المنقول شفويا بواسطة الكتابة، تعريف العلاقة بين العهد القديم والعهد الجديد، التباعد اللغوي ومعنى الكلمة في أصل وضعها، وما كانت تشير إليه في القديم. كما أن التقليد المسيحي، ورث إشكالية جوهرية عن الهيرمينوطيقا اليهودية تتعلق بحرفية أو رمزية تفسير النص المقدس.

لأجل ذلك سعى اللاهوت المسيحي إلى وضع جملة القواعد لشرح وتفسير النصوص المقدسة، وهو ما بات يعرف بالهرمينوطيقا. ومصطلح الهرمينوطيقا في الأصل مصطلح مدرسي لاهوتي، كان يدل عند نشأته الأولى على ذلك العلم أو النظام المعرفي الذي يحكم عملية تفسير "الكتاب المقدس" Scripture أو "النصوص الدينية" Exégèses التي قد تتطلب فهما وتفسيرا بسب غموض معناها الذي نشعر إزاءه بالاغتراب، على أن يصبح هذا المعنى مقبولا ومنسجما مع العقائد الإيمانية. ومن أبرز من انشغل بتأويل النصوص إضافة إلى اللاَّهوتيين في مدرسة الإسكندرية، هو القديس أوغسطين.

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

1/ التأويل في مدرسة الإسكندرية

تجلى هذا الأمر لدى آباء الكنيسة الأوائل وفي مقدمتهم اللاهوتي كليمنت الاسكندريClément d'Alexandrie(150م ــ 213م) الذي كان يدعو إلى حماية العقيدة المسيحية وتسويرها بمنظار العقل، مؤكداً ضرورة التفكير العقلي سبيلاً للإيمان وتنقية العقيدة من المؤثرات الغنوصية الوثنية. فالفلسفة لا تتعارض مع الدين وليست عدوة للإيمان، بل هي خير أداة لتفقه الدين. ومتأثرا بفيلون في التأويل الرمزي حدد كليمنت خمس دلالات للنص الديني، هي: المعنى التاريخي، المعنى اللاهوتي، المعنى العقيدي، المعنى النبوئي أو الفلسفي، المعنى الصوفي.

ثم تبعه تلميذه أوريجين الاسكندريOrigin، اللاهوتي، الذي قدّم أول عرض فلسفي منظم للعقيدة المسيحية في كتابه «المبادئ». فقد استعان بالفلسفة اليونانية لتفسير الدين المسيحي، وكان يرى أن عبارات النص المقدس لها معنيان؛ أحدهما ظاهري حرفي والأخر عميق غامض لا يمكن التعبير عنه إلا بلغة الرموز، وبينما يتوقف العامة عند الأول، فإن العارفين أو الإنسان الكامل ـ وهم الفئة الأقل ـ يغوصون ليدركوا الثاني، لأنهم وحدهم من يمتلكون مفاتيح أقفال الغموض المختبئ في النص. ويتوسط هؤلاء وأولئك فئة أخرى. ومنه فأرجين يتحدث عن دلالة ثلاثية للنص المقدس، تتناسب ومراتب الناس في فهمه، وهي: الدلالة الحرفية أو التاريخية، الدلالة الأخلاقية (مبادئ السلوك المستقاة من النص)، الدلالة الصوفية أو الروحية أي خاصية الإيمان والراحة النفسية.

ومن نماذج تأويلاته العقلية لآيات الكتاب المقدس تأويله لما جاء في سفر التكوين: ((في البدء خلق الله السماوات والأرض))؛ فقد رأى أن في أن (في البدء) هنا لا تعني((في بدء الزمان))ح بل في المبدأ؛ أي في الكلمة؛ لأن الله ثابت لا يتغير من لا خلق إلى خلق، فهو يزاول قدرته ويجود بخيرته منذ الأزل، وسيستمر في ذلك إلى الأبد.

2/ التأويل لدى القديس أوغسطين

يعد القديس أوغسطين(354-430م) أهم هيرمينوطيقي في الكنيسة الأولى، وأهم ممثل لما بات يعرف ـ والوصف لدافيد جاسبر ـ بـ "هيرمينوطيقا الإيمان" فقد وثق العلاقة بين الإيمان الديني واليقين العقلي بعبارته الشهيرة: «اعقل كي تؤمن وآمن كي تعقل»، مبيناً أن الإيمان لا يلغي العقل ولا يعفي من

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

البحث ولا يقتل الفكر. ويقصر أوغسطين البحث الهيرمينوطيقي على الفقرات الغامضة من الكتاب المقدس، إذ لا تبرز الحاجة إلى التأويل إلا إذا حالت الفقرات الغامضة دون الفهم. إلا أن المعنى الحرفي أو اللغوي للنص المقدس لم يكن بأقل أهمية عنده، بل هو الأساس المتين للتأويل المجازي، يقول في كتابه العقيدة المسيحية: « بخصوص العبارات الرمزية، لابد من لحاظ القاعدة التالية: على القارئ أن يتعامل بحذر مع كل ما يقرأه، إلى أن يستقر على القراءة التي توصله إلى مملكة الحب. لكن إذا بدا أن النص قد استعمل بمعناه الحرفي، فلا يمكن عندها التعامل مع التعبير بطريقة رمزية». ذلك أن ما يهدف إليه التأويل الأوغسطيني هو إيضاح وتفسير المقاطع الغامضة من الكتاب المقدس، فهذا الأخير لا يحتاج إلى إنارة رمزية تعم أجزاءه وتفاصيله لأنه خطاب واضح وبديهي وإنما يتطلب تفسيرا من أجل فهم واستيعاب دلالته المستعصية على الادراك. طوّر أوغسطين قراءة متعددة للنص الديني في محاولة منه لحل الجدل الهيرمينوطيقي بين مدرستي الإسكندرية وأنطاكية[1]، إذ طور نظرية في التفسير تشمل التفسير الحرفي والتفسير الرمزي.

1- نظرية المعاني الأربعة

حدد أوغسطين المعاني التي يبحث عنها المفسر في أربعة مستويات بدلا عن ثلاث، يقول: « في كل الكتب المقدسة علينا أن نميز الحقائق الأزلية المودعة فيهاaeterna، الأحداث التي تروىfacta، والأحداث المرتقبةfutura، قواعد العملagenda الموصى بها أو التي ينصح بها». وتبعا لهذا حدد هذه المعاني على النحو الآتي:

أ/ المعنى الحرفي

ب/ المعنى الأخلاقي

[1]- كان مفسرو مدرسة أنطاكية، يتبعون التقليد اليهودي المحلي في التفسير، حيث كان التركيز على القراءة الحرفية للإنجيل والاستناد إلى حقيقة الوحي الإنجيلي التاريخية. وقد رفض قراء مثل تيودور القوروشي(428-50) فكرة المعاني المختبئة في النص، معتبرا الانجيل كتاب واضح ومفتوح لجميع المهتمين بقراءته. كانت اهتماماته منصبة على القراءة الحرفية والنحوية للنص، وعلى المسيح التاريخي الذي "انبثق من جوف التاريخ"، وشاركنا في إنسانيتنا التي رفعها بأسلوبه الأخلاقي إلى مستوى الألوهية.

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

ج/ المعنى الرمزي
د/ المعنى الباطني أو الصوفي.

2- قواعد التأويل عند أوغسطين

إن القديس أوغسطين وهو صاحب الفضل في الحث على تأسيس هيرمينوطيقا تحكمها قواعد وأصول، ولقد استلهم قواعد هذا المنهج من القديس أمبرواز، لكنه قيد هذا المنهج ببعض القيود، إدراكا منه أن التأويل إذا ما طبق دون محاذير فقد ينتهي إلى التلاعب بالأفكار، خاصة إذا ما تم توظيفه إيديولوجيا؛ بحيث يتم تسريب أفكار جديدة جريئة في صيغ قديمة مألوفة. وقد لخص أوغسطين منهجه هذا في كتابه(حول العقيدة المسيحة)، ويترجمه البعض(في المذهب المسيحي) De Doctrina Chrstiana ، في هذه القاعدة:« إن كل ما جاء في الكتاب المقدس ولا يتعلق مباشرة بالإيمان وبالأخلاق لابد من اعتباره معنى مجازيا». وبالنسبة إليه، هذه القواعد والأسس تتمثل في:

أ- إن المعرفة أو الإشراق اللازم للولوج داخل فجوات وشقوق المقاطع المعتمة تأتي دائما، عن طريق الرب، وهذه الصلة لا تنعقد إلا بتوافر: الاعتقاد، الأمل، الإحسان. وفي هذا يقول أوغسطين « الإنسان الذي تستند حياته برسوخ إلى الإيمان والأمل والحب، لا يحتاج إلى النص الديني إلا ليعلم الآخرين». فالتأويل عند أوغسطين لا يكشف عن معنى أعمق ولا عن رؤية أكثر صفاء للحقيقة إنما هو يكشف عن أحد مفاهيم العقيدة المسيحية، والذي يتخلص في حب الله وحب القريب، وفي ذات الوقت عن مبدأ تأويلي هو: « يجب تأويل كلّ النصوص تبعا لأمر الحب هذا، الذي يحيل كل ما هو قابل للتغيير على ما هو ثابت».

ب- توافر إخلاص الروح ووفاؤها حتى تكون مؤهلة لاستقبال الأنوار الربانية التي بها يتم فعل التأويل.

ج- يجدر بالمؤول أن يقوم بتحليل حذر وشامل للغة النص وبنيته النحوية، من أجل منع أية استنتاجات غريبة لا أساس لها. فالكلمات عبارة عن دلالات أو علامات.

وفي الأخير يمكن القوا أن التأويل الأوغسطيني يتميز عمن سبقه، بوضع حدّ للإبهام أو التعمية التي يتعمد البعض وسم الكتابة المقدسة، وكأن الأمر يتعلق في المقاربة الهيرمينوطيقية، بالبحث عن هذه

محاضرات مقياس:

فلسفة التأويل في العصور الوسطى

المناطق المعتمة لتجليتها، مع أن الأصل في هذه الكتابة، حسب أوغسطين، هو الوضوح مطلقا، الأمر الذي يجعلها في متناول الضعفاء وصغار. وهو بذلك، يتنصّل، بصورة واضحة، من أفكار أورجين الذي يعتقد بأنه لا يخلو مقطع من النص التوراتي إلا ويحمل معنى مجازيا.